المحاضرة الثامنة: عهد الأسرة القرمانلية١٧١١-١٨٣٥:

هي أسره تركية الأصل من مدينة قرمان الواقعة جنوب الأناضول في أسيا الصغرى، جاء الجد الأكبر أثناء قدوم سنان باشا لتحرير طرابلس الغرب من فرسان القديس يوحنا عام ١٥٥١ وكان مصطفى باشا الجد الأكبر من جملة الجنود الذين أمر سنان بإبقائهم، فاستقر في منطقة المنشية، ومارس التجارة وتمكن من امتلاك مزارع وتزوج من فتاة طرابلسية الأصل واندمج مع أهالي المدينة.

لقد لاحظنا خلال عهد العثماني الأول ١٥٥١-١٧١١ الذي شهد في معظم فتراته ونتيجة سوء الحكم والإدارة قيام ثورات في مختلف أنحاء البلاد ونشوب فتن، وصراع دموي بين أعضاء الديوان والانكشارية ولم يسلم منه حتى الكرغلية، اذ تولى خلال هذه الفترة ٤٢ دايا فمنهم من تولى ليوم واحد أو أسبوع أو شهر وغالبيتهم مات قتلا. كما كان الشأن في الجزائر العثمانية ، وانصراف الانكشارية من مهمة الدفاع عن البلاد إلى مهمة الكسب والشهرة والسلب والنهب وعزل الولاة أو الثورة عليهم، فأصبح الضباط الأقوياء هم أصحاب الحل والربط في كل اجتماع يجتمعه الديوان لاتخاذ أي قرار، ويولّون ما يشاؤون في منصب الولاية، حتى أصبح على رأس الولاية عام١٧٠١م بائع القهوة وهو عثمان القهوجي الذي كان يطبخ القهوة في سوق الترك تولى السلطة فيها مدة ثلاثة أشهر وخمسة وعشرون يوما.

وقد تولى السلطة في الولاية مع بداية القرن الثامن عشر وخلال عشر سنوات تسعة ولاة كان همهم الوحيد هو تحقيق مآربهم الشخصية وإهمال أمور الرعية التي كانت تتخبط في فوضى عارمة من أشدها أعمال النهب والقتل وعدم الاستقرار الاجتماعي.

وفي هذه الظروف استطاع أمين الخزينة (الخزندار) من تولي منصب الداي ويدعى أبوميس الذي عمل على فرض الأمن وألزم الجميع بالطاعة، بينما كان يرى في أحد ضباطه وهو أحمد باشا القرمانلي شخصية قوية ومنافسا عنيدا يجب التخلص منه فاخترق ذريعة له بأن كلفه بمهمة تأديب أهل غريان وحمّله رسالة مضمونها الفتك به فاطلع على

فحواها، وأطلع عساكره، فطالبوه بالرجوع إلى المدينة والقضاء على الداي أبوميس ،وفعلا تخلص منه نهائيا .

ولاية احمد باشا القرمانلي ١٧١١-١٧٤٥ (مؤسس حكم الأسرة القره مانلية):

نادى أتباع أحمد باشا به دايا على طرابلس فرحب به السكان بحكم صلة القرابة التي تربطهم به كما يتمتع بصفات جيدة وأخلاق حسنة.

إن هذه الصفات الحميدة مكنته من ملاطفة أعيان ورجال الدين بطرابلس الذين ساهموا في اختياره واليا عليهم بل سعوا في استرضاء السلطان العثماني حتى منحه فرمان يثبته كوال على ولاية طرابلس وليؤسس لسلالة حاكمة تسلمت زمام الحكم فيها من عام١٧١١م وإلى غاية عام ١٨٣٥م. فقام بعدة انجازات هامة ، نوجزها فيمايلي:

- تطهير الجيش من القادة والعناصر الذين ساهموا في اضطراب البلاد.
- أقام مذبحة لرؤساء الإنكشارية في وليمة أعدها لهم مما جعل بعضهم يفر من الولاية طالبًا النجاة تاركين وراءهم ممتلكاتهم وأرزاقهم.
- القضاء على حركات العصيان والتمرد التي حدثت في تاجوراء وترهونة وقاد بنفسه حملة أعدّها ضدّ مسلاته وتعتبر ثورة على بن عبد الله الصنهاجي سنة ١٧١٥م من أكثر الثورات صعوبة لأن قائدها تستر بالدين فادعى أنه المهدي المنتظر.
- توحيد البلاد ونشر الأمن في ربوعها وتوسيع حدود إمارته على حساب جيرانه.
- بعد استعادة السيطرة الكاملة على إقليم فزان قام بتنظيم التجارة والاهتمام بطرق القوافل التجارية نحو تمبكتو ودارفور وغدامس وإلى أواسط إفريقيا. جالبة معها العبيد والتّبر، وريش النعام والعاج ، وبعض الصموغ.
- تنظيم أمور الولاية تنظيما جديدا وتحسين أمورها ومنحها صفة شبه استقلالية

- اعتماده على أقربائه ومشاورته للعلماء والأعيان من تعميق نفوذه وتقوية مركزه فضمن لأبنائه من بعده حكم الولاية حكما وراثيا.
- أولى عناية كبيرة بشؤون الدين فكان يسهر باهتمام خاص على أن تجري السلطة الإدارية كلها في مواطنها وفقا لأسس الشريعة، وبمناسبة ذلك أمر بإعادة المحاكم الشرعية التي أبطلت في عهد العثماني الأول،كما أمر بافتتاح محاكم شرعية في الأماكن التي خلت منها.
- بنى الكثير من البيوت والقصور الأنيقة داخل القلعة ،ومدرسة ومسجدا يحملان اسمه عامي١٧٣٧ و ١٧٣٨م على التوالي وهما يقعان بسوق المشير في مواجهة السرايا الحمراء ، وأوقف عليهما أوقافا كثيرة . وكان محبا للعلماء ورجال الدين ومنهم الشيخ الفقيه محمد بن خليل بن غلبون (صاحب كتاب التذكار)، وبفعل وشاية من احد الحاقدين إذ بلغه أن ابن غلبون يزعم في خطبة الجمعة ووعضه بأن الجامع الذي بناه الباشا والمعروف باسمه بني بأموال حرام على بعض الأراضي المغتصبة واتى بأقوال الفقهاء في هذا الباب وانشد لغيره :

كمطعمة الأيتام من كدّ فرجها فليتها لم تزن ولم تتصدق .

- اهتم ببناء أسطول بحري وتوجيهه لضرب السفن الأوربية في حوض المتوسط مما أجبر هولندا وانجلترا للإسراع لدفع إتاوات لضمانة سلامة سفنها.كما رفع اسم السلطان من الخطبة وشكل مجالس شرعية تنظر في الدعاوي المقدمة دون موافقة مفتي الإسلام في الأستانة، ولكنه استدرك الأمر فتراجع عن معاداته للسلطان، وقد اتسمت سنوات أحمد باشا الأولى بالعدل والرخاء الاقتصادي وتخفيف الضرائب عن السكان.بينما شهدت سنوات حكمه الأخيرة بالتشدد وفرض ضرائب أثقلت كاهل السكان فأصيب بالعمى وتنازل على الحكم لابنه محمد باشا. وقد دفعت به عزته إلى الانتحار١٧٤٥.

محمد باشا ١٧٤٥- ١٧٥٤ ومميزات حكمه :

ورث محمد باشا حكم ولاية طرابلس الغرب بعد أن استقر أمرها حيث عرفت هدوءا امنيا ورخاء اقتصاديا وارتبطت مع جيرانها بعلاقات حسنة، وأصبحت مهابة الجانب وسارعت الدول الأوربية كالنمسا والدانمارك لطلب الأمان لسفنها في حوض المتوسط، وتوافد عليها التجار من كل حدب وازدهرت التجارة، إلا أن هذه الأوضاع لم تدم على حالها بسبب تدخل أقاربه في أمور الحكم وظهور ثورات مناوئة لحكمه كثورة صهره أحمد بن حسن كيخيا وثوره درنة وغريان، تمكن من إخمادها بصعوبة، فاضطربت حياته وانصرف إلى اللهو والمجون وشرب الخمر انتهى به الأمر إلى أن قتل في إحدى حفلات الفسق والمجون عام ١٧٥٤م.

ولاية علي باشا(١٧٥٤- ١٧٩٣):

وصل الوالي علي باشا إلى سدة الحكم بعد وفاة والده عام ١٧٥٤م، وكانت الولاية تعيش في أسوأ أوضاعها، حيث لم يلبث أن واجه منذ توليه السلطة العديد من الانتفاضات والثورات والتمردات في العديد من أقاليم الولاية إلى جانب تواصل الضغوطات الأوربية عليه إلا أنه تمكن من مواجهتها بحزم، حيث تمكن من التخلص حتى من ابن عمه حاكم درنة خليل بك الذي عارض نشاط القرصنة ومصطفى أبو شاقور الذي طالب بتولي حكم ولاية طرابلس. ويصف الكثير من المؤرخين هيمنة الأعلاج القراصنة على الحكم، ففيرو و ميكاكي يصفا حكم علي باشا بأنه قد استسلم إلى للكيجيرية فسلبوه الإرادة، وصاروا يحكمون البلد باسمه، وعطّلوا وظائف الديوان.

وعلى عهده ، تعرضت البلاد عام ١٧٦٧ إلى قحط شديد وتفشي مرض الكوليرا الذي أفنى الكثير من السكان ومما زاد الطين بلّة اندلاع الثورة بين قبيلتين كبيرتين وهما أولاد سليمان والفرجان، و دفع بالكثير من الناس إلى الهجرة نحو تونس ومصر، كما أصيبت طرابلس في عام ١٧٨٥م بطاعون انتشر في جميع القطر ومات من سكان المدينة وحدها

آلاف من الأشخاص، حتى عجز الجنود عن نقل الموتى إلى المقبرة، بل كانوا يطوفون بالمدينة ويزيحون الجثث من الطرقات، ولم ينقطع الوباء إلاّ بداية عام ١٧٨٦.

وصف نائب القنصل الفرنسي بأن أوضاع طرابلس أثناء حكم علي باشا القرمانلي بأنه لا يحكم إلا متمردين ومناطق جدباء ومدينة يعمها الخراب والدمار، وأسوارها مدمرة عديمة الجدوى وعليها مدافع قديمة فاسدة، وأن سبع سنوات من القحط، ثم تفشى الطاعون مما ضاعف من أعداد الموتى والمهاجرين حتى أصبحت طرابلس صحراء قاحلة مقفرة، و الحقد والكراهية والاقتتال بين أبناء الباشا على السلطة والذي راح ضحيته حسن بك على يد أخيه يوسف.

مؤامرة علي برغل واستيلائه على السلطة :

وأمام هذه الأوضاع المزرية استغلها أحد المغامرين يدعى علي برغل(*) الجزائري فعرض على السلطان العثماني سليم الثالث طريقة تمكنه من التخلص من حكم الأسرة القرمانلية في طرابلس الغرب واستعادة سيادة السلطنة عليها بشرط تعيينه واليا عليها، فوافق السلطان على ذلك دون تردد، فهاجم علي برغل طرابلس بسفن على متنها ٤٠٠رجل فنزلوا طرابلس في جويلية ١٧٩٣وقرئ فرمان السلطان فما كان من علي القرمانلي وأسرته إلاّ الفرار من طرابلس إلى تونس، لأن بين باي تونس وبين داي الجزائر(أخو علي برغل) عداوة شديد .

وهذا الحال جعل سكان طرابلس في حيرة وتردد من أمرهم بقبوله واليا عليهم أو رفضه ثم اتفقوا على أمر بتمكين البلاد لعلي باشا برغل لان عدم قبوله عَينَ الخروج من طاعة أمير المؤمنين ونقض لبيعته وذلك شقاق وشقاوة الدّارين وكما أن دفع هذه الأساطيل ليس بالأمر السهل، وكما كان متوقع منه فلما استولى على المدينة أباحها لجنوده فقتلوا ونهبوا أموال أهل البلد وفسقوا فيها ثم اتفق مع رجاله للاستيلاء على تونس فكلف أحد قادته المدعو قره محمد التركي بأن يبادر باحتلال جزيرة جربة وتحقق ذلك في ظرف قصير وفرَّ

(*)– برغل:هي كنية تعني بالتركية القمح المسلوق المكسر اشتهر به علي لأنه كان يفضل أكله بدلا من الأرز.

عاملها حميدة بن قاسم بن عباد مما أثار سخط باي تونس حمودة باشا ، فجمع قواته بقيادة الوزير مصطفى خوجة واستطاع تحرير جربة ودخول مدينة طرابلس وتحريرها. بينما فرّ علي برغل إلى الإسكندرية في جانفي١٧٩٥م ونزل ضيفا على مراد بك، فأنزله في قصر بالجيزة .

استعادة القرمانليين للسلطة وولاية حكم يوسف باشا ١٧٩٦-١٨٣٢:

بعد فرار علي برغل إلى مصر عاد القرمانليون إلى طرابلس فتنازل علي لابنه أحمد على الحكم ١٢٠٩هـ / ١٧٩٥م بحضور الوزير التونسي مصطفى خوجة والعلماء وأعيان الجند ووجهاء البلاد. ولكن أحمد عرف عنه انه مهملا لشؤون الحكم منهمكا في الملذات وشرب النبيذ مما زاد في سخط السكان عليه.

ففي أواسط شعبان من عام ١٢١٠هـ/١٧٩٦م خرج أحمد بك لناحية تاجوراء للترفيه وزيارة الأولياء فيها على الرسم المعتاد فانتفض عليه الأهالي بإغراء من أخيه يوسف ففر إلى مصراته ومنها إلى مالطة بعد أن دام حكمه سنة وشهرين .

استطاع يوسف باشا الوصول إلى السلطة بعد أن تخلص من قتل أخيه الأكبر حسن ثم من أخيه الأوسط أحمد وأخذ يتقرب إلى السكان مبينا لهم انه يستطيع إنقاذ البلاد من الفوضى ما دفع بأعيان طرابلس للجوء إلى باشا تونس وقنصل فرنسا ليتوسطا له عند السلطان العثماني .فوافق هذا الأخير بإصدار فرمان على تولية يوسف واليا على طرابلس.

ومن الصفات التي ذكرتها "مستر توللي" عن يوسف باشا أنه متعجرف وغير مهذب في كلامه، إلا انه شجاع وذو شخصية صلبة متهورة، ولكنه لم يظهر بمظهر الشدة والبطش كما عرف عليه سابقا بل تميز بصرامة عادلة كانت تشوبها كياسة لم تكن متوفرة في صفات أي أمير أخر، بل كان عادلا، متحررا، مسالما.

استطاع يوسف باشا بحنكته التحكم في زمام أمور الحكم بالشدة واللين والوقوف أمام ضغط القوى الثلاثة الإنكشارية والكروغلية فاستخدمها ضد الأوربيين والقضاء على الثورات

الداخلية كثورة أهل غريان بزعامة الشيخ عبد الوافي ١٨٠٣م وثورة أحمد سيف النصر في فزان١٨٠٦م، فقد تمكن من القضاء عليهما بشدة.

تمكن يوسف باشا القرمانلي من إعادة إقرار النظام بالقضاء على كل مسببات الفوضى كالسرقة وأعمال قطاع الطرق فأمر بإعدام كل من يرتكب جرما أو اعتداء، كما اظهر تسامحا كبيرا نحو اليهود وعاشوا في أمان وطمأنينة.

علاقاته بالدول الأوربية :

و لكي يعيد اعمار الخزينة المالية التي وجدها خاوية حينما اعتلى السلطة فأرغم الدول الأوربية على دفع الهدايا والهبات ونظم البحرية وشجع أعمال الغزو، فأصبحت بذلك طرابلس مستودعا كبيرا للغنائم والأسرى المسيحيين، مكنته من تشييد المباني وإصلاح أسوار المدينة، فزادت ثقة السكان به و كانت الدول الكبرى تبذل كل ما في وسعها لتوثيق علاقاتها الطيبة به، غير أنها ساءت أكثر بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية التي فرضت عليه حصارا شديدا ١٨٠١-١٨٠٤ ، تمكن من الاستيلاء على اكبر سفينة أمريكية " فيلادلفيا" ، وانتهى الخلاف بعقد صلح بينهما.

وقد شهد الوضع الأوربي مع بداية القرن التاسع عشر تحالف أوربي ضد توسعات الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت انتهت بهزيمته في واترلو عام١٨١٤م، ووقوف يوسف باشا معه في حملته ضد مصر عام١٧٩٨، وعلى اثر انعقاد عدة مؤتمرات أوربية، كمؤتمر فيينا عام ١٨١٥م ومؤتمر اكس لاشابيل عام ١٨١٨م التي ركزت على محاربة القرصنة في حوض المتوسط ومنع تجارة الرقيق، وهم بذلك يقصدون كل من الجزائر وطرابلس الغرب وإرغامهما على إطلاق سراح الأسرى الأوربيين، وهذا مما انعكس سلبا على تراجع مصادر إيراداته وأنقصت من نفوذه وزادت الأحوال الاقتصادية سوءا عاما بعد عام وهبوط وعدم استقرار العملة، فلم يجد مخرجا إلا بزيادة الضغط على السكان وفرض ضرائب متنوعة ،أفقدته شعبيته، خاصة وأن السياسة الجبائية المطبّقة كانت تعسفية وغير عادلة،

حيث أثقل كاهل القبائل المحدودة الإمكانيات المادية والمالية ، بينما أعفى من الضرائب المرابطين والعلماء .

الصراع الأسري ونهاية الحكم القرمانلي وعودة الحكم العثماني إلى طرابلس الغرب :

نظرا للضائقة المالية التي أصبح فيها يوسف باشا بسبب تدهور أحوال البلاد الاقتصادية وتردي الأوضاع الاجتماعية وركود التجارة والفلاحة والصناعة الحرفية ، وانتشار الأمراض لانعدام الوقاية والرقابة الصحية وقلة الطعام، أضف إلى ذلك تدخل الدول الأوربية بحجة عدم دفع يوسف باشا الديون الملزم بها، وأمام سوء الأوضاع وأسلوب الشدّة والغلظة التي عانى منها الناس في عملية جمع الضرائب، هذا ما زاد في كراهية و حقد الناس على الباشا وأعوانه فاندلعت ثورة قبائل أولاد سليمان بالجهة الشرقية والجنوبية من الولاية والتي كان على رأس هذه الثورة زعيمها عبد الجليل سيف النصر ، و اتسع نطاقها لتشمل أيضا القبائل المجاورة لها، ثم تمرد الكورغلية في كل من الساحل والمنشية رافضين الاعتراف بسلطة يوسف باشا الذي دفع به للإسراع إلى عقد اجتماع بحضور الزعماء والأعيان والعلماء وأعلن عن تنازله على السلطة لابنه علي باشا، ليبدأ صراع وتنافس الأبناء على السلطة، إذ رفض أخوه محمد الاعتراف به وسانده في ذلك زعيم الكروغلية بمصراته عثمان آغا الأدغم والقنصل الانجليزي وانغتون wahngton والقنصل الفرنسي شيبول sheybol، والقبائل الثائرة وفشلت كل مساعي الصلح التي قادها شاكر أفندي مبعوث السلطان العثماني محمود الثاني .